الأمن

أ.د.طه جابر العلواني

«**الأمن**» أعظم نعمة يتطلّع الإنسان للتمتُّع بها بعد الصحة والعافية، فهو حاجة أساسيّة لا يستطيع إنسان أن يستغني عنها، فحياة الإنسان بدون أمن لا يمكن أن تكون تامة أو كاملة. فالأمن يرقى إلى مستوى المقاصد العليا **ك«التوحيد»** و«**الحريّة**» و«**التزكية**» و«**العدالة**»؛ ولذلك نجد القرآن الكريم وقد عُني به عناية شديدة، وامتنّ الله (تبارك وتعالى) على قريش بأن آمنهم من خوف: ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ (**قريش:4**)، فالطعام قوام البدن «**والأمن**» قوام النفس والعقل والقلب والفؤاد. وقد أُثر عنه –صلّى الله عليه وآله وسلَّم– أنَّه قال: "مَنْ أصبح آمنًا في سربه، معافا في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حِيزت له الدنيا بحذافيرها"، أو كما قال –صلّى الله عليه وآله وسلَّم.

وقد امتنّ (تبارك وتعالى) على المؤمنين بقوله: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (**الأنفال:26**). والدولة لا تقوم إلا على «**الأمن**»، فهو ضرورة للأفراد وللدول والجماعات والشعوب والقبائل وسواها، ويقول (جلّ شأنه): ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ (**الأنعام:82**)، ودول العصر تُنفق الجانب الأكبر من ميزانيّاتها على قوّاتها الأمنيّة وجيوشها، وكل ما يستلزمه أمنها من إعداد قوة ورباط وما إلى ذلك، ومَنْ لم يجد ما يُحقّق به «**الأمن**» فهو عرضة للاستضعاف بكل مستوياته.

وعمر بن الخطاب –رضي الله عنه– اشتهر بالاهتمام **ب«الأمن»**، وتحقيقه لكل منتمٍ إلى دار الإسلام، سواء أكان مسلمًا أو غير ذلك، وكان يحافظ على أمن الناس من قضاته وبهم، ومن عمّاله وبهم كذلك، بحيث تشعر أجهزة الدولة كلُّها –القضائيَّة والتنفيذيَّة والسياسيَّة– أنَّ مهمتها الأولى والثانية والثالثة والعاشرة هي جعل جميع المنضوين تحت راية الأمَّة المسلمة والدولة المسلمة يعيشون في أمان، لا يخافون إلا الله والذئاب على أغنامهم. ووصلت حساسيّة عمر –ومَنْ سار على دربه من خلفاء المسلمين– أن اعتبر ما لا يمكن تحقيق «**الأمن**» دونه واجبًا من أهم الواجبات؛ ولذلك قال قولته المشهورة: "لو أنَّ جملًا على شط الفرات زلق، فهلك ضياعًا، لخشيت أن يُسأل عنه عمر: لِمَ لم يُعبّد له الطريق"،

فحساسيّة ضميره باعتباره رئيسًا للدولة جعلته يشعر بأنَّ مسؤوليّته تتجاوز البشر إلى الحيوان والحجر، فعليه أن يُعبّد الطرق، ويُوفّر المياه والغذاء، ويُؤمّن السبل، ويحمي الناس في بيوتهم وطرقهم ومدنهم وقراهم من سائر الأخطار، بما في ذلك الأخطار الطبيعيَّة.

و«**الأمن**» -أمن المواطنين والمنتمين إلى الأمَّة- مقياس لقوّة الدولة وسلامتها، واستقامة القائمين عليها وعدالتهم، فإذا اختلّ الأمن فإنَّ كل ذلك البريق يصبح مجرد أسماء فارغة لا قيمة لها، فمهما لُقِّب الحكّام وأُطلق عليهم، ونطق الشعراء بقوّتهم،لا يمكن أن يشفع للدولة أو يعفيها من تحقيق الأمن لكل مَنْ وما على أراضيها.

لقد استطاعت بلدان أوربيّة وأمريكيّة وسواها أن تحقّق إنجازات كبيرة، لكن حين تفشو الجريمة ويفقد الناس أمنهم لا يشعرون بقيمة تلك الإنجازات، ولا يستطيع كثيرون منهم التمتُّع بها والإشادة بمَنْ حقّقوها، وقد يغترب الإنسان عن مجتمعه، ويشعر بالانطواء وهو يعيش في مدن كبرى عامرة، فيها أنواع ومستويات عديدة من المؤسَّسات الأمنيَّة، ولكنَّها لا تستطيع أن تحلَّ في قلبه ووجدانه "**الأمن**" الذي يتطلّع إليه.

إذنّ فمفهوم «**الأمن**» مفهوم قرآنيّ من أهم وأخطر المفاهيم التي تشتدُّ حاجة أمّتنا إلى الوعي بها وفهمها، وإدراك طبيعتها، وكيفيَّة تحقيقها في حياة الأمّة. وقد ورد في القرآن المجيد بصيغ عديدة، منها المصدر، كما اشتقّ منه اسم «**الأمانة**» و«**الإيمان**».

و«**الأمن**» طمأنينة النفس، وانعدام الشعور بالخوف والقلق والتهديد لكل ما يهمّه من ضروريّات وحاجيّات وتحسينيّات؛ ولأهميّة مفهوم «**الأمن**» عدّه بعضٌ كلمة «**التوحيد**»، وفسّرها به؛ لأنّ الأمن لم يكن يتحقق إلا بها، وقال بعضهم: إنّه «**العدالة**»؛ لأنّها الركن الَّذِي لا تتحقق الطمأنينة إلا به.

وقال بعضهم: إنَّه «**الحريّة**» التي تجعل الإنسان يتصرف وملؤه الإحساس بأنّه آمن، لن يُحاسب أو يُعاقب أو يُلاحق؛ لأنّه آمن. و«**الأمن**»في الحقيقة يتوقف على ذلك -كلّه- وكل ما ذكرنا هو من متطلّبات الشعور بالأمن؛ فلابد لمَنْ يُريد الوصول إلى حقيقته والاستمتاع به، وجعله حالة نفسيَّة يحياها القلب، وتستشعرها النفس، ويطمئن بها الفؤاد والوجدان من الارتباط بالله وتوحيده، وتزكية النفس وتطهيرها، والتمتّع بالعدالة والحريّة والمساواة. وقد امتنّ الله (تعالى) على البشريّة «بالحرم الآمن»: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا**

آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (العنكبوت:67)، وقال (جلّ شأنه): **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾**(البقرة:125)، وامتنّ الله (تعالى) على قريش بأنّه: **﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:4)**.

و«**المأمن**» هو المنزل الَّذِي يطمئنّ الإنسان فيه، ويشعر بالسكن والطمأنينة، ويُزال به الخوف لوجود مَا يؤدّي بالإنسان إلى الشعور بحالة «**الأمن**». ووسائل تحقيق الأمن كثيرة؛ أهمّها أن تكون هناك منظومة أخلاقيّة يلتزم بها أبناء المجتمع، فيطمئن الإنسان في إطار هذه المنظومة الأخلاقيّة؛ لأنّه لا يتوقع من أيّ أحد أن يتجاوز عليه، أو يتعدّى عليه، أو يُصادر حقوقه. وكذلك نظام العدل يجعل الإنسان آمنًا مطمئنًا للعيش في ظلاله، لا يخشى أن يضيَّع له حق، أو يُفرض عليه شيء بظلم.

وقد يجد الإنسان في «**السِّلم**» أمنًا، ولا يجد ذلك في حالة «**الحرب**»، و«**استجارة**» غير المسلم بالمسلمين ليسمع كلام الله (تعالى) تُوجب عليهم إجارته حتى يسمع كلام الله(تعالى)، ثم عليهم أن يقوموا بحمايته إلى أن يصل إلى مأمنه؛ أي: إلى المكان الَّذِي يأمن فيه على دياره وديار ذويه، وقد جعل الله (تعالى) بيته المحّرم آمنًا، بحيث يشعر داخله بـ«**الأمن والطمأنينة**» في قلبه ونفسه ووجدانه؛ ولذلك فقد نهى الله (جلّ شأنه) أن يُنفّر صيد الحرم، أو يُقطع شجره، أو يُعرّض اللّائذ به للخوف؛ ليكون نموذجًا للأرض كلّها -وهي التي استُخلف آدم وبنوه فيها ليقوموا بعمرانها- للأمن والحق والعدل **﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:61)** ولا يمكن تحقيق مقاصد الشارع الحكيم في «**التوحيد**»و«**التزكية**»و«**العمران**» بدون حياة آمنة مستقرّة، يسودها «**السلام**»و«**الأمن**»، وتغمرها «**الطمأنينة**».

و«**الأمن**» مطلب إنسانيّ عالميّ، سلك البشر مختلف السبل ابتغاء الوصول إليه، لكنّ تلك السبل والوسائل -التي توسَّلوا بها لتحقيق هذه الغاية في بلوغ «**حالة الأمن**»- كانت جلّها -إن لم تكن كلّها- مناهج إنسانيّة، وطرقًا بشريّة نسبيّة.

لقد ظنّ البعض أنّ «الأمن» يتحقق بالليبراليّة، وقد تُحقق الليبراليّة شيئًا منه؛ ولكنّها لا تحقق الأمن كلّه.

وهؤلاء بعد أن ركزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنساني للذات الإنسانية حول نفسها، سارعوا بتبنّي الليبرالية "liberalism" إطاراً لإطلاق حيوانيّة الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود، فاستظهرت اللّيبرالية وتأصّلت بالفردية "individualism" ثم سوغت "الفردية" بالنفعيَّة "utilitarianism" وأصّلت "النفعيّة" بالنزعة "الأدائيّة والأداتيّة أو العمليّة" واتخذت هذه النزعة الآليّة أو الأداتيّة "instrumental" نهجاً لتحقيقها.

الديمقراطية والحل:

وأمام مضاعفات "إطلاق الفرديَّة" وما أدت إليه من اغتراب وتفكيك وصراعات برزت "الديمقراطيَّة "democracy" باعتبارها حلاً موهوماً أو مفترضاً في مجال "تقنين الصراع" واستيعاب القوى الجديدة، التي يفرزها المجتمع، فلم تكن "الديمقراطية" وليس من طبيعتها أن تكون حلاً للأزمات الإنسانيَّة، أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيه البشرية للدخول في السلم كافة في سائر جوانب نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، إذ إن مهمتها فقط الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة في المجتمع. وهذا الاستيعاب كثيراً ما يتم بشكل وهميّ!! حيث يخيَّل للإنسان في الإطار الديمقراطيّ أنّه شارك في صنع القرار بمجرَّد أن أدلى بصوته، أو عبَّر عن نفسه. والتعبير عن النفس شيء، والمشاركة في صنع القرار شيء آخر. والمعطيات التي تؤثر في صنع القرار كثيرة متعدّدة؛ ولذلك فإنّ كثيرًا من الرؤساء يجدون أنفسهم شاؤوا أم أبوا عاجزين عن الالتزام بما أعلنوه في برامجهم المعروضة على الناخبين، ولا يملكون، ولا يملك منتخبوهم شيئاً. لقد تحول الإنسان من خلال "الديمقراطيَّة" إلى أداة إنتاج واستهلاك يدار – ديمقراطيّاً – وبرضاه التام بوساطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يستلفت النظر، وباعتبارها أحزاباً سياسية أوجدتها الشعوب للتعبير عن إرادتها. وإن كانت قد انبثقت في بادئ الأمر عن الشركات الكبرى. وبذلك تحول "المذهب الإنساني" الذي أقيم على "مركزية الإنسان" إلى مجرد شكل أو شعار زاد في مآسي الإنسان ومعاناته واغترابه، وجعله يدور حول ذاته منقطعاً عن ربِّه، وعن محيطه

وجذوره، فاقداً لكل ما كان يربطه بكينونته الإنسانيَّة أو علاقاته العائليَّة أو تاريخه أو جذوره الحضاريَّة.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط في "عبثيَّة وجوديَّة" تلقي به إلى مجاهل "الفراغ العدميّ" الذي جعله لا يبالي بشيء ولا يهمه أن يدرك شيئاً، فهو لا يدري أكثر من أنه لا يدري إذا توافر له الطعام والجنس. ودراسة أحوال الشعوب التي يسودها هذا النظام كفيلة بإبراز هذه الحقيقة المرّة. وإن تبجح قادتها بخلاف ذلك.

إنّ شخصية مثل هذه إن كانت قد بقي لها من مكونات الشخصية أو الكينونة الإنسانية شيء فهي مستلبة الوجود تماماً.[1]

الإنسان حيوان إعلاميّ:

لذلك فقد جعلت الأنظمة المختلفة من الإنسان "حيواناً إعلامياً" تفرّغه من مقوّمات كينونته، وعناصر شخصيَّته لتشخص له كل شيء إعلاميّاً بكل ما لديها من وسائل وأجهزة إعلاميَّة، فهو لا يشحن أو تبنى شخصيَّته تربويّاً ولا حضارياً، ولا دينيّاً، بل إعلاميّاً؛ لأنّه بالإعلام يسخّر لخدمة النظام والأيدي الظاهرة والخفية فيه التي يدار الإنسان بها. فهو إنسان يدور بين ساقيتي الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام. أينما توجهه — خارج ذلك - لا يأت بخير، إلا ما يفرضه الثلاثيُّ المذكور، ومع ذلك يخيَّل إليه أنَّه شريك فعليُّ أو مساهم حقيقيُّ في القرار السياسيّ من خلال ذلك الصوت الذي يدلي به في مواسم الانتخابات. وحين تجد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التي تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك!! والوضع الأمريكيُّ الراهن نموذج لذلك. حيث جرى تمرير الكثير من الإجراءات والقوانين المناقضة للديمقراطيَّة بكل معانيها القديمة والحديثة تحت ضغط الماكينة الإعلاميَّة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما كان لشيء منها أن يمر لولا ذلك.

1- هناك الفريق الثالث الذي اختار أتباعه للخلاص الإنساني سبيلاً آخر، حيث توهموا وجود الخلاص في دائرة "الحتميّات التاريخيّة" و "الماديَّة الجدليّة" التي زعموا أنَّهم اكتشفوها والتي تمر من أقنية "الصراع الطبقيّ" وهؤلاء لم يكونوا أقل استلاباً للإنسان من

---

[1] ننصح بالإطلاع على كتاب د.يمني طريف "**الحريّة والاغتراب**" المنشور بالقاهرة.

اللّيبراليين والرأسماليّين؛ فقد جردوا الإنسان –كذلك– من كينونته ووضعوه في إطار نمطيَّة أحاديّة مبوتقة لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا بواقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبَّر عن مصالح الشعوب في إطار الطبقة والحزب وحدهما، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كلّه وبالحضارات الإنسانيَّة كافَّة، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها، فكلها حضارات طبقيَّة لم تأخذ "الشغيلة" فيها نصيباً، وكل تلك الحضارات صنعها الجلادون وأعداء الشعوب، والإقطاعيُّون، ومن إليهم من البرجوازيِّين. وكل دين هو أفيون معيق لتحرير الشعوب، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها، وتحويل معابدها إلى ملاه ومراقص، ومتاحف إن أمكن، ويمكن للفنون من رقص وغناء ونحت ورسم وغيرها أن تلبي الحاجات النفسيّة والروحيّة لمن يجد في نفسه حاجة لذلك. وبلا مواربة وبعد خمس وسبعين عاماً أعلن أصحاب هذه الأطروحة موتها وفشلها. وارتدت تلك "الحتميات التاريخيّة" و "الماديَّة الجدليّة" على أصحابها بالخسران والخذلان، وتفككَّ الحزب والإمبراطوريَّة التي أقامها، قبل أن يبني الحزب جنَّته الأرضيَّة ليعيش فيها مجتمع الرفاهيَّة الذي وعد الناس به. وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان ما عادت إلى الظهور داخل الاتحاد السوفيتي المقبور العصبيَّات القوميَّة، والأصول العرقيّة والطائفيّة والدينيّة لتعلن أن النظريَّات التي قامت على "الماديَّة الجدليّة" و "الحتميّات التاريخيّة" لم تستطع استئصالها أو تغييرها لكنَّها كَمُنَت تحت سيف القهر، وحين وجدت فرصة للظهور المجدّد لم تتردد في اغتنامها لتعلن أنها كانت أقوى من تلك النظريَّات التي زعموا أنها نظريّات خلاص.

ماذا عن أمتنا؟

إن شعوب أمتنا في جملتها تصنَّف فيما يعرف بـ"العالم الثالث" على تفاوت محدود في تلك الثالثيَّة. والأزمات والمآسي التي ترزح تحتها تمثل ضعف ما يجتاح عالم اليوم من مآسٍ وأزمات، ذلك أنها ترزح تحت مشكلات عالم ما قبل الصناعة التي ترجع إلى ما يعرف بـ"التخلّف" فهي أكثر شعوب العالم تخلفاً بمعايير التقدم الصناعي والتقني والعلمي والتنموي. كما أنها لم تنس نصيبها من أزماتها الخاصة بها التي تحدرت إليها من ماضيها وبعض الجوانب السلبية من تراثها. ولم يخفف من وطأة تلك الأزمات ماضيها المجيد ولا كونها صانعة الحضارات الإنسانية التاريخية في وادي الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام والصين والهند

وفارس واليمن. وأنها – بعد الإسلام – قد قدمت حضارة كان لها أثرها الحميد في تسديد مسيرة البشرية، وإرساء الدعائم التي مهدت لهذه الحضارة التي صارت تعرف بـ"الغربية".

إننا نقولها وكلنا حسرة: إن أمتنا في حالة سبات عميق لم تستيقظ منه بعد، ولم تسلك للنهوض سبيلاً، ولا تزال عاجزة عن الفعل، وتعيش حالة "ردود الأفعال" الناجمة عن الصدمات التي تصنعها وتبلورها الحضارة القائمة، الأوربيّة – الأمريكية، ولم ترتق بعد إلى حالة "الفعل" إذ لم تتوافر فيها شروط الفعل بعد، ففقدت الفاعليّة. وقياداتها– بمستوياتها المختلفة– أفرزتها تلك الصدمات: فكانت قشرة أو فئة أو طبقة فوقية صغيرة توزعت وانتمت إلى الخيارات الغربيَّة في الخلاص في خارطتها العامة: فكان منها اللِّيبرالي والماركسيّ والرأسمالي والثوري والاشتراكيّ والانقلابيّ العسكري، أو الانقلابي الحزبيّ، وكذلك الدكتاتوريّ.

فكانت تلك الخيارات منبتَّة منقطعة زادت في أزمات الأمة، فهي لم تنبع من تفاعل مبدع مع قضايا الأمة. وجل ما حدث في داخل تلك المجتمعات، وانبثق عنها، لم يكن من الفاعلية بحيث يؤدي إلى تطوير طبيعي فيها فبقيت حتى اليوم في افتقار شديد للقواعد الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لتستند إليها وتبلور تجاربها، وتفجر طاقاتها، وتنمي أفكارها، وتنتقل بها إلى حالة الإبداع الضروريَّة لأيَّة نهضة.

وقد عانت مجتمعاتنا – ولا تزال تعاني - من التناقض الحاد بين القيم الغربية التي أفرزتها الحضارة الغربيَّة المهيمنة، وعملت النخب الفوقيّة الحاكمة والمساعدة لها على غرسها وتبنِّيها وفرضها من علٍ على مجتمعاتنا(2) وبين مؤثِّرات وبقايا الأنساق الحضارية المغايرة، والموروثات الإيديولوجيَّة والإدراكيّة المتأصّلة في ثقافتها، بحيث صارت ثقافة وأعرافاً وتقاليد ليس من اليسير على شعب مفارقتها بالأوامر والإجراءات الفوقيَّة، وهم يحاولون الآن استيعاب الأمة واحتواءها في إطار "العولمة" المعاصرة ليفرضوا عليها خيارات الخلاص وفق مقاييس ومواصفات هذه العولمة المعاصرة التي تقودها أمريكا، وذلك بعد أن فرضوا عليها عولمة سابقة قادها الاستعمار الأوربي التقليدي فأدخلت إليها ليبرالية زائفة انتهت

[2] إن عمليات "التحديث" في مجتمعنا كانت وسائل تدمير لبناها التحتية، وبعض المتبقي لديها من قيم موروثة، وفشلها لم يعد يحتاج إلى دليل، وهذه –وحدها – تحتاج إلى جملة من الدراسات لتكشف عما لحق بالأمة من خسائر وآثار خطيرة نتيجة تلك العمليات التحديثية المرتجلة.

بدكتاتوريات الأحزاب والعسكر والقبائل والطوائف. وأضفت شرعيّة زائفة على التعسف والاضطهاد بألوانه المختلفة.

العولمة وما تعنيه:

إن "العولمة" المعاصرة وإن بدت كما لو كانت عولمة اقتصادية فقط – لكنَّها- في الواقع تعني – هذه المرة- الاستتباع والإلحاق بنظام عالميّ له مؤسّساته الدوليّة سياسيّاً واقتصاديّاً وأمنيّاً وتربويّاً وفكريّا وحضاريّاً بل والمؤسَّسات الدينيَّة كذلك. وقد منحت هذه المؤسَّسات للعولمة شرعيَّتها، وأخذت من هذه المؤسَّسات تفويضاً تاماً بتغيير قيم العالم ونظمه وقياداته، بل صارت هذه المؤسسات أداتها ووسيلتها في إحداث تلك التغييرات القسريّة.

ولم تعد "العولمة المعاصرة" تقبل من الآخرين مجرد القبول بها، أو الانفتاح عليها، ثم التداخل الاقتصاديّ معها، لكنّها تصر على أن تعيد تشكيل أنظمة الشعوب والأمم الأخرى على صورتها، وتلحقها بها إلحاقاً عضوياً ليكون "الاستتباع" عضويّاً كاملاً غير منقوص لا يفرق فيه بين السياسيّ والاقتصاديّ والتعليميّ والثقافيّ والفنيّ والحضاريّ. وعمليّات الاستتباع الثقافيّ والحضاريّ لا ترحم، ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة من موروثات الشعوب الحضاريّة والمعرفيّة إلا قامت بتفكيكها، خاصة تلك الموروثات التي تقرر قيادة العولمة أنَّها قد تشكل عقبات ربما تحول دون تقبل هذه الشعوب لعمليات الاندماج في العولمة، ويتم هذا الاحتواء بعمليات جراحية كبيرة أو بسيطة تدعى "عمليات صراع الحضارات أو صدامها" ومنطق صدام الحضارات أو صراعها لا يفرق بين حضارة غائبة وحضارة قائمة ما دام لها بشر لا يزالون يعلنون الانتماء إليها. ويتضافر مع صراع أو صدام الحضارات أطروحات أخرى فرعية كثيرة نعايشها اليوم في كل أنحاء العالم، وسيؤدي ذلك كله إلى احتواء ليبراليّ لهذه الحضارات والثقافات وشعوبها؛ وذلك لأن منطق اللّيبرالية جعلها تؤمن بأنَّها "نهاية التاريخ"[3]

الارتداد إلى الموروث:

---

[3] أي: أنّها وصلت أعلى مستوى يمكن للإنسان أن يصله، فلن يجد التاريخ ما يسجله بعد ذلك. وراجع **موسوعة اليهود واليهودية** (1/337-338) وتأمل في الهامش (17) من هذه الدراسة.

والخطر الداهم – الآن – أن شعوبنا لم تعد تملك سوى تراثها وموروثها الحضاري والديني المنحدر إليها من أسلافها، وهو التراث الذي صاغه الأسلاف بطرائق إدراك ومعرفة خاصة عائدة إلى المكونات التاريخيَّة لذلك الموروث، وهو في سائر الأحوال له وعليه، وهنا مكمن الخطر إذ ستجد الأمة نفسها مسوقة دون اختيار للاحتماء بموروثاتها الحضاريَّة والمذهبيَّة والثقافيَّة والأيديولوجيَّة دفاعاً عن النفس، ودون تمييز أو نقد أو تجديد أو تمحيص، وهنا سوف تدخل الأمَّة في حالة تعصُّب لموروثاتها بالحق وغيره، وهذه الحالة تجعلها في نظر العولمة أكثر تطرفاً وأصولية أو إرهابية إن أمكن هذا من وجهة نظرهم هم.

أما من وجهة نظرنا فإن الخطر في ذلك الارتداد غير المنظَّم إلى الماضي هو في أنّه سيحمل شعوبنا في رجعتها هذه إلى الموروث على التوقف عن المراجعة وتجميد سائر حواس النقد ووسائله – إن وجدت – وتوقيف أيّة ممارسات تجديدية داخلية – إن وجدت– إذ لا صوت يعلو حينئذ على صوت معركة الدفاع عن النفس: فتصبح محاولات "التجديد النوعي الداخلي" على ضعفها وقلتها بدعة من البدع أو تواطأ مع قيادة العولمة، وفي أقل الأحوال تبعيَّة واستحسانا لبدائل العولمة: وتفقد الشعوب آنذاك القدرة على التمييز بين عناصر التحصُّن الداخليّ، وقوى الهجوم الخارجيّ فتدخل حالة "الفتنة التي تذر الحليم حيران".

وهكذا تبدو مشكلة "الخلاص الإنساني" أزمة مستفحلة وشاملة للمتقدم وللمتخلف، فللتقدم أزماته وللتخلف أزماته كذلك. ويستوي في العجز عن تحقيق "الخلاص الإنساني" الفريقان الفاعل والمنفعل.

فهل يكون الحل علمياً؟

لاشك أن العلم قد تقدم كثيراً، وتطور وارتاد آفاقاً تجاوزت الطموح الإنساني، وقد أصبح على مشارف اكتشاف "الكونيَّة" بكينونتها وعناصرها، ولاشك أن "الكونية" تحمل الحل، لكن البيئة الغربية الأمريكية والأوربية التي يعيش العلم ويتطور فيها وفي مؤسساتها لم تمكنه من الكشف عن القيمة الكونيَّة للإنسان، والقيمة الإلهية للوجود في تطورها العلميّ والفكريّ والمعرفيّ.

واللّاهوت لم يمارس تجديداً نوعيّاً يمكِّنه من المساعدة على ذلك، والإسلام لم يكتشفوه بعد إلا من خلال أنظمة مهترئة، وأمثال ابن لادن وجون محمد وصدام ومن إليهم، ولا

يزالون يتعايشون مع تاريخ المسلمين أثناء الحروب الصليبيَّة، وحروب الدولة العثمانيَّة والأندلس، ويقيسون الإسلام على ذلك. وحاضر العالم الإسلامي لم يتمكن ولم يسمح لأسباب كثيرة بصياغة "الخطاب الإسلامي التجديديّ" ولا يملك القدرة على ذلك. وقد لا يرى الكثير من الدعاة ضرورة لذلك التجديد النوعيّ، فلا غرابة أن يلجأ العديد من اللّاهوتيين في الغرب إلى الترويج للعودة الثانية للسيد المسيح، وقد يحدد بعضهم سنة سبع بعد الألفين موعداً لنزوله، أو ما بين سبع وتسع احتياطاً لينتهي التاريخ (بالمخلص والأبناء الذين يحبهم). في حين يسود شعور في بعض الأوساط الإسلامية (بأن المهدي قد أطل موعد ظهوره)، وأن ذلك قد يكون عام 2005م [4]، وهكذا تتعاضد وتتظاهر المتداخلات اللّاهوتيَّة بين المتخصصين في الأديان على تدعيم وتعزيز أفكار مشتركة في الجذور وإن اختلفت في المظاهر والانعكاسات والتأثيرات.

أين الأمن والخلاص؟

لقد تبين مما قدمنا أن العالم –كلّه – اليوم يبحث عن "الخلاص الكليّ"، وهذا "الخلاص الكليّ" يتعذر أن تأتي به القوميّة العنصريّة أو الطبقيّة أو الحزبيّة أو الطائفيَّة أو الإقليميّة أو اللّاهوتيّة المتعصّبة أو الليبراليّة، أو الجدليَّة الماديّة والصراع الطبقي والحتميات التاريخيّة، أو أيّ طرح حصريّ أو أحاديٍّ ذاتيّ التكوين. ولا يمكن أن تأتي به "الديمقراطيَّة" و "العولمة" في طرحها الحالي: فالوضع العالمي الراهن لا يمكن أن يتقبل إلا حلولاً وبدائل قادرة على تقديم نفسها عالميّاً؛ بحيث لا يكون طرف يفرض، وطرف عليه أن يتقبل ويستجيب. وفي الوقت نفسه تكون قادرة على استيعاب وتجاوز فلسفات الأرض ومناهجها كافَّة، وليس هناك مصدر غير القرآن الكريم المحفوظ، المكنون، الهادي للتي هي أقوم يستطيع تحقيق هذين البعدين – معاً– أعني عالميَّة الحلول والبدائل والمعالجات وشموليَّة المنهج المعرفيّ، وقدراته الهائلة على التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز.

فالقرآن بخصائصه – ولا مصدر سواه – يستطيع أن يقوم بالتصديق والمراجعة ثم الهيمنة على سائر المناهج المطروحة، وإعادة صياغاتها ضمن منهجه الكوني. والقرآن – وحده

---

[4] ثم ينزل المسيح بعد ذلك. ويبدو أن مؤلفي "المفبركان الباطل" أطلقوا اسم "الصفيّ" باعتباره المتلقي لهذا "المفبركان الباطل" واسم "المهدي" باعتباره من ترجم معانيه. وتأمل هامش (17) في هذه الدراسة.

– وبتصديقه وهيمنته قادر على استيعاب تلك المناهج وإصلاحها وتنقيتها وترقيتها ثم تجاوز السلبيّ منه والاحتفاظ بالإيجابيّ. فالقرآن هو الأقدر على أن يعالج القرآن بمنهجيته القائمة على "الجمع بين القراءتين"[5] مشكلات الوجود الإنساني وأزماته الفكريَّة والحضاريَّة، ويُدخل الناس حالة السلم كافَّة.

إن القرآن ﴿**لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ (**الواقعة:79**) والمطهّرون هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وعهد الله لا يناله الظالمون، والسماوات والأرض ما خلقا باطلاً ﴿ **مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (**الدخان:39**)، والإنسان بالغاً ما بلغ فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلقه: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (**غافر:57**). وليعطينا القرآن بعضه لا بد أن نعطيه نفوسنا وعقولنا وقلوبنا كلَّها، ولا بد من تحقيق عدة أمور تمهيدية قبل الولوج إلى رحابه:

<u>الأول</u>: تجريد وتنقية معارف وحيه من سائر آثار النسبيَّة البشريَّة التي أحاطت بمطلقه، وحجبت أنواره، وأخضعته لوعيها الذاتيّ، وحكمت عليه بتاريخانيّتها، وحكَّمت بمحكمه أيديولوجيَّاتها وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها، وقاموسها اللُّغويّ. فإذا لم نجرد "آيات الذكر الحكيم" من ذلك –كله – وإذا لم نعد قراءته بنور القراءتين المذكورتين في بداية نزوله وأوائل آياته، قال (تبارك وتعالى) :﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (**العلق1–5**). وفي إطار وحدته البنائيَّة. فإننا لن نتمكن من فهمه معرفيّاً، ولن نتمكن من تحليل آياته وتثويرها واستنطاقها، وإذا لم نصل لهذا فلن نستطيع أن نستوعب به مناهج العلوم المعاصرة ونتجاوزها، بحيث نتمكن من إعادة فهمها وتوظيفها في إطار "الكونيَّة"؛ لأن ذلك – وحده- الذي سيساعدنا على إعادة بناء العقل الإنساني وصياغته انطلاقاً من: التوحيد والتزكية والعمران صياغة كونيَّة إلهيَّة.

<u>الثاني</u>: الالتزام بالأمانة مع القرآن فكريّاً ونفسيّاً فلا ندخل إلى عالم القرآن بحثاً عن شواهد لأفكار بنيناها بعيداً عنه، ومبادئ وضعناها خارجه؛ لأن المطلوب أن نبدأ حركة التغيير بالقرآن من داخل النفس، فإذا تهيأت النفس وانفعلت به انعكس استعدادها وتهيؤها

[5] سنأتي على تفصيلها في الحلقة الثانية من هذه السلسلة.

وانفعالها بالإصلاح على ما حولها، ثم تنداح دوائر الإصلاح – آنذاك – استعداداً وتهيئاً على مستوى جماعيّ، وذلك أقوى بكثير من مشاريع إصلاحات فكر النهضة في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وإن كان فكر النهضة اجتهاداً صدر من أهله. كما أنَّ ما ندعوا إليه أعمق من تحولات الأفكار الثوريّة، وأكثر فاعليّة من سائر التنظيمات التي قامت أو تقام على أساسها.

أما ما درج عليه المعاصرون من الإسلاميِّين من الاهتمام بالحشد العدديّ والتركيز عليه، والاتجاه نحو التجميع الكمِّي دون فكر قرآنيّ، ودون منهج قرآنيّ صارم كذلك، والتصرف بعيدا عن منطلقات التغيير من داخل النفس، فإن ما يفعلون لا يعدو أن يكون مشروعاً سياسيّاً قد يؤدي في حالة نجاحه إلى تسلّطٍ فئة أو وصولها إلى سلطة في قطر مّا كليّاً أو جزئيّاً، لكن ذلك لن يؤدي إلى تغيير بالقرآن لما في النفس والمجتمع وجهاد به. والله لا يعطي عهده للظالمين، ولا للذين يريدون علواً في الأرض وفساداً، أو أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، إذ أن مآل هؤلاء الخضوع إلى سنَّة "الصرف عن آيات الله" ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ (**الأعراف:146**) وأعمال هؤلاء الغافلين عن آيات الله لا قيمة لها ولا أثر في بناء العمران، أو صناعة التاريخ إلا الآثار السلبية، فهي أعمال حكم عليها بعدم الفاعليَّة التامَّة، وبفقدانها لأيَّة آثار عمرانيَّة إذ هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، كما أنَّها أعمال محكوم عليها بالحبوط.

الثالث: الدخول إليه بعد فهم "الأزمة" وإدراك أبعادها – كلّها – والإلمام بتعقيداتها، والإيمان بقدرة القرآن المجيد على إيجاد حل مناسب لها، وأن لا مصدر غير القرآن يستطيع أن يقدم العلاج الشافي فيها؛ ولذلك فلابد من الاطِّراح على أعتاب القرآن اطِّراح المفتقر، المدرك لتجرُّده من كل طول وحول للخروج من أزمته إلا بالله (تعالى) وكلماته.

الرابع: إدراك "الخصائص الذاتيَّة" للأمَّة القطب أو للأمَّة المنطلق التي يراد لها أن تكون ميدان الإصلاح والتغيير الأول، وقاعدة الانطلاق باتجاه "العالم والعالميَّة" وفي الحالة التي نحن فيها فإن "المنطلق" هو الأمَّة المسلمة– والعرب في موقع القلب منها – ما دامت لم تخضع

بعد لسنَّة "الاستبدال" بإيجاد أمَّة مسلمة بديلة عنها. وخصائص المسلم الذاتيَّة – التي غرسها الإسلام فيه – هي الخصائص التي لابد أن تظهر في محيط الأمة، وتتحول إلى ثقافات وأعراف سائدة وجزء من الهُوِيَّة.

إنَّ خطاب الإصلاح والتغيير الذي جرى تكوين المسلم بمقتضاه خطاب قرآنيٌّ، فهو يتَّجه بشكل مباشر هادف إلى الإنسان في كينونته الكاملة عقلاً ونفساً ووجداناً وعاطفةً، فهو خطاب لا بد أن يبدأ بالإنسان ذاته ونفسه في إطار الأمَّة من غير انحراف نحو عرق أو طبقة أو لاهوت أو ما إليها، فإنَّها –كلّها – تتنافى مع مكونات هذا الإنسان وخصائصه، ولا يمكن لأي نوع من أنواع الخطاب الأخرى التي تمت صياغاتها قديماً أو حديثاً في أمريكا وأوربا وروسيا والصين وسواها أن تشكِّل منظومة دوافع الفاعليَّة لدى هذا الإنسان المسلم، لعجزها عن ملامسة خصائصه الذاتيّة وذلك قدره.

إن نجاح تلك الخطابات المغايرة في تشكيل الدوافع لدى الأمم الأخرى، وإحداث التغيير فيها لا يقوم دليلاً ضد ما ذكرنا، بل قد يعزز ما ذهبنا إليه. فلكل أمَّة خصائصها، ومفاتيح التغيير القادرة على ملامسة هذه الخصائص.

خطابات التغيير الأخرى:

ولقد شكل خطاب التغيير الطبقيّ مجموعة الدوافع التي انتهت بالثورة الفرنسية عام (1798)م. وتحت تأثير ذلك الخطاب الطبقيّ – والثورات الطبقيَّة التي نجمت عنه – تحققت الثورة البلشفية في روسيا عام (1917)م. وبتأثير الخطاب العرقيّ قامت النازية عام (1933)م في ألمانيا. وبالخطاب اللّاهوتي تأسست البابويَّة. وبخطاب المزج بين اللاّهوتي والعنصريّ العرقيّ تأسَّست دولة إسرائيل. لكن هذه الخطابات بسائر صيغها وبكل التعديلات التي أدخلت عليها لم تصنع ما استعير منها في الواقع الإسلامي وفي الواقع العربي منه بالذات ولن تصنع إلا مزيداً من التفكُّك والتشرذم والسلبيَّة والتراجع، والمراكمة على رصيد التجارب الفاشلة.

وعلى ذلك فإنَّنا بحاجة لأن نوقن بهذه الحقيقة، وأن نجعل منها أمراً بديهيّاً شائعاً في أوساط الأمة، وأن لا نمل التأكيد عليها حتى تستقر في العقول والقلوب والنفوس، وتنطلق بها

الألسنة والأقلام لتصبح تياراً أو روحاً يسري في الأمّة –كلّها- لتحدث حالة الاستعداد للنهوض، والتهيؤ لقبول "الحل القرآنيّ".

الأمَّة القطب بمجموعها وبخصائصها :

إن "خطاب الإصلاح القرآنيّ" خطاب تشكل الأمَّة الشاهدة معالم تطبيقه وتنفيذه وتحقيقه وتثبيته في الواقع – بعد خاتم النبيين الشاهد والشهيد-. الأمَّة الشاهدة القطب التي "لا تجتمع على ضلالة" و"لا تجتمع على خطأ" فهي ليست حزباً ولا جماعة ولا حركة ولا طائفة ولا جمعيّة ولا فرقة ناجية،ولا هيئة وصاية، ولا هيئة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولا مرجعيَّة، ولا قاعدة، ولا هيئة كبار علماء مهما كبروا، ولا مجموعة المجالس والمجامع، ولا الطائفة المنصورة، ولا منظمة المؤتمر الإسلامي، ولا جامعة الدول العربية، بل هي الأمَّة – كلّها – باعتبارها أمة وبوصفها أمّة دون افتئات أو مصادرة عليها،أو حديث عنها بالنيابة والوكالة. إنّها الأمة القطب بخصائصها الذاتيَّة ومقوّماتها الفكريّة، وشخصيَّتها المتميزة. وأرجو أن لا يذهب وَهْم أحد إلى أنني أدعو إلى إلغاء سائر التجمُّعات وتسريح سائر الدعاة، وإنهاء خدمات سائر المؤسّسات، (حتى ينتشر الوعي لدى الأمة –كلها – بفضل قراءة القرآن المجيد لتقوم قومة رجل واحد فتحدث النهضة، ويتحقق التغيير) لكنَّني قصدت أنَّه لابد لخطاب الإصلاح والتغيير لهذه الأمة أن يلاحظ خصائص التكوين عندما يصوغ خطاب التجديد والتغيير.

فما هي أهم خصائص التكوين؟:

إنّ القرآن المجيد قد أخذ بأيدينا إلى أهم خصائص التكوين وتتلخصّ بـ"وحدة المرجعيَّة" "إيجاد الأمة الواحدة المتآلفة القلوب" و"الالتزام الجماعيّ المؤكد الصارم" بهذين الأمرين "وإيجاد آليّة لاستمرار ذلك"، وهي: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بشروطهما ومواصفاتهما ومستوياتهما. قال (تبارك وتعالى): ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ**

لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (**آل عمران:103-105**) فالأمر بالاعتصام بحبل الله جميعاً، ونبذ التفرق والاختلاف جميعاً خطاب شامل للأمَّة -كلّها- لا يستثني فرداً منها بحال، وفي ذلك تحديد للمرجعيَّة الواحدة من ناحية، وبناء لضمير الالتزام الجمعيّ الشامل - من ناحية أخرى - بجميع قضايا الأمة وفي ضمائر أبنائها كافَّة، وتأكيد على ضرورة الإرادة الجماعيَّة الشاملة في قلوب أبنائها جميعاً لتكون أمة، ولتبقى أو تستمر أمة قائمة، وهذه الأمور الثلاثة: (تحديد المرجعية بالقرآن، والتأكيد الدائم على ضرورة الالتزام بها، وبناء ضمير الالتزام الجمعيّ في ضمائر أبنائها كافة، وإيجاد وترسيخ الإرادة الجماعيَّة الشاملة في قلوب أبناء الأمة كافة وصيانة ذلك- كلّه - بآلية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تؤدي -كلها- إلى تحديد الرابطة بين أبناء الأمَّة -كلّها- ألا وهي الأخوة، وبيان الوسيلة التي أدت إلى ذلك وهي "التأليف بين القلوب" والتأكيد على أن أيَّ ضعف أو انحراف أو إخلال بمفهوم الأخوة وهيمنته على العلاقة بين المسلمين، أو تجاوز وسيلته الأساس ودعامته الكبرى ألا وهي "التأليف بين القلوب" يعني إنهاء الروابط داخل الأمّة، والدخول في حالة العداوة وبلوغ شفا حفرة من النار ثم السقوط فيها والعياذ بالله.

فما الذي يستلزمه ذلك؟

إن ذلك يستلزم أن تتمخض الأركان التي ذكرنا "وحدة المرجعيَّة" وتأكيد "الالتزام الجمعيّ" بقضايا الأمَّة، وتشكيل الضمير المتابع لذلك، و"تحقيق الإرادة الجمعيَّة" وتحقيق "التأليف بين القلوب" للوصول إلى حالة "الأخوة" تتمخض من أن تنبثق أمَّة من الأمَّة، بحيث تكون بعد ذلك الأمَّة كلها، وتضع في مقدَّمة أولويّاتها بعد أن تتحقق هذه الأركان فيها، أن تبلغ بالأمَّة -كلَّها- حالة تجعلها قادرة على ممارسة دورها في الخلافة والشهود والعمران آنذاك.

فهذه الأمَّة تتحرك بالإرادة الجمعيَّة للأمَّة، لأنها منها، فتبقى الأمة هي الكيان الأساس، لا الحزب ولا التنظيم ولا الجماعة ولا الطائفة، ولا المذهب ولا الإقليم؛ ولذلك قال (تبارك وتعالى): **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (**آل عمران:104**) فهذه الأمَّة الخيِّرة، المتحلية بكل هذه الصفات جزء من الأمّة، ملتصق بها، تكوَّنه الأمّة طليعة لها، للتفاعل معها، ومن التزامها

بخصائص الأمّة. تستمد شرعيَّتها ووجودها، فهي مثل أعضاء الجسم الواحد أو كريَّات الدم تؤدي أدوارها في التحام تام بالجسم، ودون انفصال عنه: فالجسم –كلّه – هو الذي يحمل لها الحياة، ويمدها بالحيويَّة، وهي تؤدي أدوارها فيه، ومن خلال ما ينتجه ذلك الجسم لها، فهما شيء واحد لا انفصام لهما.

وهذه الأمَّة التي تتكون منَّا بإرادتنا الجمعيّة، وباختيارنا الحر تتجسد أحياناً في شكل نظام، وأحياناً في شكل تنظيم وأيّاً كان الأمر فليس من حق النظام، أو التنظيم أن يتكون خارج الأمة، أو ينفصل عنها قبل التكوين أو بعده، أو يتجاهل أيّاً من الأركان التي جاءت بها آية "الاعتصام بحبل الله"؛ فإن هو فعل فسيخلق حالة عداء ويؤدي إلى التفرق والاختلاف، وكل ما يخلق أيّاً من هاتين الحالتين مرفوض ومردود، ولن يؤدي إلى تحقيق الهدف.

الأمة بين جور النظم وافتئات التنظيمات:

من المؤسف أن نرى أمتنا بعد أن طال عليها الأمد، وغابت عنها هذه القواعد تعيش بين حالتي استلاب قد أوكلتها إلى نظام يستلبها ويستعبدها ويستبد بها، أو إلى تنظيم يفتات عليها، ويمزّقها ويفرض نفسه عليها ناطقاً باسمها أحياناً أو ممثّلاً لها أحياناً، دون أي تشاور أو رجوع إليها؛ فكأنها تتذبذب بين جور النظام واستبداده، وبين تفرقة التنظيم وتصنيفه وتمزيقه لها، واستعلائه عليها، فتستجير بأحدهما من الآخر ولسان حالها يقول:

والمستجير بعمرو عند كربته *** كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولا خروج من هذه الدوامة إلاّ بأن يكون كل من النظام والتنظيم متلاحماً مع الأمّة، ملتصقاً بها، وليكتسب كل منهما الفاعليَّة والشرعيَّة يجب ويتحتم أن يكون أمَّة في داخل الأمّة، وأمّة من ذات الأمَّة، لا يوجد أيٌّ منهما خارجها، ولا يتخلق بمعزل عنها، ولا يتجاوز تاريخها ومكوّناته، ولا يتجاهل "جدليّة" ذلك التاريخ وهو يتحرك لتغيير ما فيها وإصلاح أحوالها، بأن ينصرف إلى تكريس النظام وحمايته فيتحول إلى مستلب للأمَّة بالنظام، أو يتجه إلى الحزب أو إلى التنظيم فيتحول إلى مفرّق لها، فارض نفسه عليها، فيثير العداء في صفوفها، والاختلاف والتفرق بين أبنائها. ويوجد حالات الصراع الداخلي بين فصائلها.

منكم لا عليكم:

إن الأنظمة المستبدة – في مختلف أقطار أمتنا المسلمة وأقاليمها لم تأخذ بقوله (تبارك وتعالى): ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ** ... ﴾ (**آل عمران:104**) فتحولت إلى "عليكم" فصارت متسلّطة علينا، مستبدة في شؤوننا مفتاتة علينا، مستلبة لإرادتنا تستمد شرعيّة وجودها من خارجنا، تسوغ ذلك لنفسها بشتى المسوغات، ومنها: قصور الأمّة، أو عجزها عن إدراك مصالحها!! وما من أمة مجتمعة إلا وهي أعقل وأحكم من أهل الاستبداد فيها مهما بلغت درجات تعلّمهم أو ذكائهم أو تدريبهم، فالزعيم المستبد يمكن أن يضل ويشقى ويخطئ ويجهل، أما الأمَّة إذا اجتمعت كلمتها، وتمتَّع أبناؤها بحقوقهم، واستردوا إنسانيّتهم ومارسوا حريّاتهم فمهما أخطأت فلن تجتمع على الخطأ، ومهما انحرفت فلن تجتمع على ضلالة.

لكن قيادات النظم المتجاهلة لـ "منكم" والمتسلطة "عليكم" وكذلك التنظيمات ترى في الأمة أسوأ ما فيها فتستعلي عليها، وتستكبر، ثم تستلب إرادتها، وتستمرئ الطغيان عليها فتصبح الأمة – آنذاك – غثاء كغثاء السيل تلعن حاكميها ويلعنونها ولا يأتي أيٌّ منهما بخير أينما توجّه. ويستعين كل منها على الآخر، ويستقوى عليه بالآخرين.

الاستبداد لا يأتي بخير:

إن "العبودية" رتبة شرف حين تختص بالله (تعالى) أمّا حين تصرف إلى غيره فهي مذلة وهوان وصغار فهي – آنذاك - أحط درك ينحدر الإنسان فيه.

ولقد هفا "حكيم الشرق" جمال الدين الأفغاني – رحمه الله– "وهفوات الكبار على أقدارهم"، وذلك حين قال: "إن هذه الأمة "المسلمة" لا تصلح إلا بمستبد عادل" ولو تأمل رحمه الله قوله (تعالى): ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ (**العلق:6–7**) لأدرك أن "العدل و "الاستبداد" نقيضان لا يجتمعان في رجل أو نظام، أو تنظيم فإمَّا عدل وشورى فينتفي الاستبداد، وإما استبداد واستعلاء، فتنتفي الشورى، ويختفي العدل. وتظهر عبودية الإنسان للإنسان. والأمَّة التي تطاوع على ذلك أمَّة ناكثة لعهدها، متراجعة عن قولها "بلى شهدنا" ناقضة لعروة من أهم عرى "التوحيد" ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ (**الأعراف:172**). ومستقيلة من مهمة الاستخلاف ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**

وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:30). وهي خائنة للأمانة ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:72)**.

وراسبة في اختبار الابتلاء ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:2)**. ومتخلية عن عبادة الله إلى عبادة العباد ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:73-76)**.

فكل هذه الانحرافات ثمرة لأزمة تصيب الأمَّة حين تتقبل حالة الاستلاب الطاغوتيّ، سواء أكان من نظام أو تنظيم فهي بكماء خرساء أينما توجَّه لا تأتي بخير، كل على أولئك الذين استلبوها، غثاءٌ كغثاء السيل.

لقد توهم فرعون أنّه إله حين طغى واستمرأ الطغيان، وطاوعته جماهير شعبه المخدوعة، المستذلّة المخلِدة إلى الأرض، فلبَّوا نداءه، فحشرهم، وإذ رأى كل تلك الجماهير الأصفار الصغار حوله انتشى، وأسكره خضوعها "...فانطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة، المليئة بالغرور والجهالة: ﴿..**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات:24)** قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره وإذعانها، وانقيادها. فما يخدع الطغاة شيء مثل ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلاّ فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً إنّما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها! فيجر! وتحنى له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى؛ وهذا الخوف لا ينبعث إلاّ من الوهم، فالطاغية – وهو فرد- لا يمكن أن يكون أقوى من الملايين والألوف لو

أنّها شعرت بإنسانيّتها وكرامتها وعزتها وحريَّتها. وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنّه يملك لها شيئاً! وهو لا يملك لنفسه شيئاً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمَّة كريمة أبداً. وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة رشيدة أبداً، وما يمكن أن يطغى فرد في أمّة تعرف ربَّها، وتؤمن به، وتوحده، وتأبى أن تتعبّد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً...."[6]

روى لنا وزير أوقاف أحد المستبدين أن سيده سأله مرة إن كان ممن تجب عليهم الزكاة؟ وبعد سلسلة من الألقاب قال له وزيره "نعم": تجب الزكاة على من يملكون النصاب، وسيادتكم منهم "فأجاب السيد الرئيس" ألا ترى أنني أطعم الشعب كله، وأوفر له الدواء والكساء والتعليم والنقل، ألا يعد هذا أكثر من الزكاة بالنسبة لي؟ فبهت الوزير ودعا للسيد الرئيس وانصرف. وهذا الرئيس كان قبل الرئاسة معدماً عالة، ومن أسرة معدمة جعل رزقه مربوطاً بمسدسه يبتز به الضعفاء ويسلبهم أموالهم، إلى أن بدأ التدرج في سلالم الحزب والسلطة فاستلب الحزب واغتصب السلطة فأصبح مال الشعب كله ماله الشخصي، وكأنّه رأى في شعبه أولئك الضعفاء الذين كان يسلب ما معهم من نقود، ويضربهم وينصرف بما معهم على أنَّه ماله وحلاله مادام آل إليه ولو بالاغتصاب!!

أفيستغرب – بعد ذلك – أن ينهار هذا الشعب المستلب أمام أعدائه ولسان حاله يقول ما قاله الشاعر الجاهليّ:

لا أذود الطير عن شجرٍ **** قد بلوت المر من ثمره

وحين تفقد الأمة ثقتها بالنظام، وتنهار الجسور بينها وبينه، يبرز فيها الاستعداد لقبول البدائل إن وجدت، وهنا يأتي التنظيم، ويطرح نفسه بديلاً بين يدي الشعب، ويطرح من الشعارات ما يخلب الألباب، ويسوق انتقادات كثيرة للنظام، ويؤكد بأنَّه "منكم وإليكم"، فإذا ما منحت الأمة التنظيم شيئاً من ثقتها سرعان ما تبرز روح "عليكم" للتعبير عن التسلُّط والوصاية والامتياز وروح الاستعلاء، وكأن صفات النظام تتلبس بالتنظيم، بل تنمو فيه وهنا ينبّه القرآن الكريم إلى هذه الحالة فيقول (تبارك وتعالى): ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي**

---

[6] في ظلال القرآن: (3815/6) تفسير سورة النازعات.

الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (**204–207**).

ولتدخل الأمة في حالة السلم لابد لها من تجاوز– أي أن تتجاوز كل ما يثير عداءًا بين أبنائها سابقًا أو لاحقاً، وكل ما يثير اختلافاً بين فصائلها. فالتنظيم الذي لا تتجسد فيه روح "منكم" بكل المعاني التي ذكرناها فإنه سيكون مصدر اختلاف، ومصدر تفرُّق، يسوغ لنفسه الاستعلاء والافتئات على الأمة، وقد يلوي أعناق النصوص، وينحرف بالخطاب ليدعم سياساته المنبثقة من روح "عليكم" وتصبح الأمة أو الشعوب بين مطرقة استلاب النظم وسندان استلاب التنظيم.

الاستقواء بالخارج:

إنّ بعض الحكّام من أبناء هذه الأمّة نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأوهمهم شياطينُهم أنّ أمنهم وأمن نظمهم، وخلاصهم وخلاص نظمهم، في خارج بلدانهم، بعيدًا عن أمّتهم، فاستقووا بهم على أمّتهم، ونفّذوا للأجنبيّ كل ما كان يحلم به؛ لقد كانوا يتسابقون لإرضائه فينفذون ما يتوهّمون أنّه يجب أن يفعلوه، فيحقّقونه له قبل أن يطلبه، حتى إذا لم تعد به إليهم حاجة ألقى بهم كما يُلقي بعقب سجارة غير مأسوف عليهم. ومع أنّ هذه الحالة قد صارت ظاهرة مطّردة منعكسة في كل من هؤلاء لكن لم تجد لاحقًا منهم قد اتعظ بسابق، لا في القديم ولا في الحديث، بل يأتي اللّاحق والوهَمُ يستبُّد بأنّه مختلف ولديه مناعة مما حدث لغيره.

ولو علم هؤلاء أنّ الخارج والجهات الخارجية ليست مؤسسات خيريّة، ولا جمعيات تطوعيّة، نذرت نفسها -أموالها وجهودها- لحماية الضعفاء والمظلومين والمضطهدين، بل هي دول ومنظمات كبرى مليئة بالمطامع، مشحونة بالطموحات، تسعى إلى تحقيق مصالحها وخدمة أهدافها، ولا ترى في عمليات الاستقواء بها والاستنصار إلا مداخل سهلة تفسح لها المجال لتحقيق تلك المطامع والطموحات، والتاريخ حافل بالأمثلة على ذلك، وأمّة كالأمّة المسلمة -في عظمتها واتساعها وتاريخها وتنوع شعوبها ومواردها- إن لم تستطع أن توحّد كلمتها

وتُشكل كيانًا موحدًا فلا أقل من أن تشكل مؤسسات ومنظمات ووسائل تستطيع أن تُعين شعوبها وأبناءها على معالجة مشكلاتهم وتجاوز أزماتهم، والخروج من المآزق التي قد يسقطون فيها نتيجة بغي الخلطاء بعضهم على بعض، «وإن الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا من رحم الله»، فليت الأمّة المسلمة أقامت لنفسها آليات لفضّ المنازعات، ومؤسسات لمعالجة الاختلافات التي تُعد من الأمور الطبيعية حتى في داخل الأسرة الواحدة، فلا بد من محكمة إسلاميّة عُلْيا تتولى معالجة القضايا التي يمكن أن تتأزم وتتحول إلى مشكلات إذا لم تجد مَنْ يُعالجها أولًا بأول، وكذلك تفعيل المنظمات الإقليميّة والإسلاميّة لتحقيق هذه الأغراض، ومحاصرة المنازعات والمشكلات. والله الموفق...